

الرحالة العربي الثائر

«جاء مصر وأدى رسالته ، ثم
مات في ظروف مريبة !!»

استيقظت القاهرة في ساعة مبكرة من الصباح على نبأ
هزها من الأعماق. وأثار الحزن والدهشة، وفتح باب الريبة
والشك على مصراعيه...

كيف مات... العالم المفكر الثائر هكذا بغتة؟! وقد كان
إلى ما بعد منتصف الليل يجلس في مقهى يلدز بالقرب من
حديقة الأزبكية وحوله أصدقاؤه من الثائرين والمفكرين وقادة
الرأى يتناقشون في السياسة والعلوم وفنون الأدب، وكان
يشارك في المناقشة بصوت هادئ وإتسامة حذرة، فقد جاء إلى
مصر موثلاً الأحرار... ليقول كلمته ضد الاستبداد عامة...
و ضد استبداد الدولة العثمانية بوجه خاص... واستطاع أن
يؤدى رسالته بشجاعة وجرأة، وصلابة استفزت غضب

السلطان عبدالحميد، ولقيت تجاوزاً جارفاً من الشعب العربي،
وأرضت شعور الخديو عباس... فقد كان مختلفاً مع
السلطان!

ولوجئ الناس نبأ وفاة عبد الرحمن الكواكبي... صباح
يوم الجمعة ١٥ يونيو من عام ١٩٠٢. وكان إلى ما قبل
ساعات يتحدث ويتسم، ومخايل الصحة باقية عليه...
وامتدت الأصابع إلى الخديو عباس... منهوة بأنه هو الذى
قتل الكواكبي!!

ولكن... متى استطاع عباس ذلك، وقد ظل الكواكبي
مع أصدقائه فى المقهى إلى ما قبل الفجر وذهب إلى البيت
فى صبحه ابنه كاظم؟ وكيف يقتل الخديو عبد الرحمن
الكواكبي وكان موضع إكرامه، وقد اختار الكواكبي لنشر
مقالته عن «طبائع الاستبداد» فى جريدة المؤيد... التى
كانت اللسان المدافع عن عباس ضد جميع أعدائه فى الداخل
والخارج...

إن الذين تناولوا حياة الكواكبي بالبحث الموضوعى أو
الدراسة الجانبية... بينهم معاصرون له أمثال رشيد رضا،

ومحمد كرد علي، وأحمد شفيق، وبينهم من تعمقوا في تحليل اتجاهاته السياسية وفلسفته في إصلاح الأمة وتدعيم قوة الإسلام... مثل الأساتذة: أحمد أمين وعباس محمود العقاد وسامي الدهان. وقد سلطوا الضوء العالي على حادثتين هامتين في تاريخ الكواكبي... حادثة وصوله إلى مصر خلال فترة تازمت فيها الأمور بين الخديو والباب العالي في الإستانة... وحادثة وفاته في ظروف غامضة...

ولكى لا يتوقف القراء وهم يتابعون هذا الكلام عن عبدالرحمن الكواكبي... يجب أن نعقد بينهم وبين الكواكبي علاقة شخصية تقربه إليهم، بحيث يرونه كائناً حياً مازال يعيش بينهم.

كان مولد الكواكبي في مدينة حلب عام ١٨٤٨، ومات في القاهرة عام ١٩٠٢. وقد تعلم في بلده، وأتقن اللغتين الفارسية والتركية، واعتمد في صقل مواهبه وتنمية ثقافته... على الكتب التي تصدر بهاتين اللغتين، وعلى الكتب العربية، وأفاد من احتكاكه بالناقشة والجدل مع المتابعين للثورة الفكرية في أوروبا، وقد تلقى من هؤلاء معلومات... فتح بها آفاقاً جديدة لدعوته التي حددها في نقطتين. رفع كلمة الأمم

الإسلامية، وتقويض دعائم المستبدين، وبخاصة دولة آل عثمان.

وقد بدأ حياته صحفياً في جريدة تصدر باللغتين العربية والتركية... اسمها «فرات»، ثم أصدر بضع صحف في حلب، وكان يهاجم فيها السلطان وأعرانه ويدعو إلى قيام خلافة روحية «قرشية»... واتهمه خصومه بأنه يريد أن يكون هو خليفة المسلمين، وأكدوا اتهامهم هذا بحرص الكواكبي على توضيح انتسابه إلى قريش واعترازه بمجد الأبناء والأجداد.

ولم يتمكن الكواكبي من أن يرفع صوته في حلب... إلا بقدر ما نشر من مقالات «أم القرى»، التي دعا فيها إلى قيام جامعة إسلامية.

وكان على الرغم من حدته في التعبير عن آرائه... يتهب سطوة القانون، فلم يحض على ثورة دموية... كما كان يعمل المصلح الثائر المفكر جمال الدين الأفغان. كان حريصاً في مهاجمة الاستبداد على أن تكون المهاجمة في إطار «قانون» فلا يتهم مستبدًا بعينه، ولا يحدد شخصيات بالذات...

وعندما أقام في مصر ونشر مقالاته عن « طبائع الاستبداد»، لفت إليه الانتباه من المفكرين والشائرين وكسب احترامهم ومودتهم... ومع ذلك كان يجالسهم في حذر، ويناقشهم في حذر، فقد يكونون جميعاً من الأحرار الشائرين، ولكن مفاهيمهم للحرية والثورة كانت مختلفة متباينة، ففيهم الشائرون على كل شيء، وفيهم الشائرون على شيء... والراضون عما عداه من الأشياء!!

وهو لا يريد أن يغضب أحداً منهم، فليس من السياسة أن يعادى من يحتفون به... وقد كان بتكوينه الذهني وبحكم التجارب التي تمرس بها... شخصية سياسية من طراز ممتاز. وكانت مصر في تلك الأيام نهياً لتيارات فكرية ثورية ضد الاستعمار الإنجليزي والفرنسي، وضد الخديو، وضد الخليفة السلطان عبدالحميد... الذي استعبد المسلمين عندما كانت دولته قوية، وتعقب أحرارهم بالدسائس والاعتقالات... بعدما صارت الخلافة والسلطنة ودولة آل عثمان عناوين ضخمة ليس لها موضوعات!...

وكان من يحارب الإنجليز... يتحالف مع الفرنسيين أو

مع الخديو أو مع السلطان، ومن يجارب واحدًا من هؤلاء من الأعداء يتحالف مع عدو آخر أو يتحالف مع بقية الأعداء...

وكانت مصر مركز إشعاع للفكر الثورى المتمرد على الاستعباد بكل أنواعه وأوضاعه، فهذا البلد الجذاب بأثاره وتاريخه، بلد سياحى يستقبل السياح العاديين ويودعهم بحفاوة أو بغير اكتراث، فإذا زارته عبقرية فذة، أصبح البلد السياحى مقرًا دائمًا للعبقرية الفذة، ووطنًا أصيلا لصاحب العبقرية...

ولقد كان عبد الرحمن الكواكبي عبقرياً طاف بكثير من البلاد، ولم تطل إقامته فيها، ولم يجد فى أى بلد طاف به ظروفًا تسمح له بتأدية رسالته، فلما طاف بمصر، أحس أنها الحرم الامن الذى يفتح له رحابه ليذكر كما يشاء، ويعتبر كما يشاء.

وقد وفد إلى مصر عام ١٨٩٩، ولقى ربه فيها عام ١٩٠٢، وخلال هذه الفترة قام برحلتين إلى بلاد كثيرة، وفى ذلك يقول: السيد رشيد رضا:

« إنه وجه همته أخيرًا إلى التوسع في معرفة حال المسلمين ليسعى في الإصلاح على بصيرة، فبعد اختباره التام لبلاد تركيا والأرمن، والاكراد ومصر، والسودان، وسواحل أفريقيا الشرقية، وسواحل آسيا الغربية... اختبر بلاد العرب التي كانت موضع أمله. فدخلها من سواحل المحيط الهندي. وما زال يوغل فيها... حتى وصل إلى سوريا، واجتمع بالأمراء وشيوخ القبائل، وعرف استعدادهم الحرب والأدب وحالة البلاد الزراعية ودرس كثيرًا من معادنها وأحضر منها نماذج...»

ويستطرد السيد رشيد رضا فيقول:

« إن الكواكبي انتهى في رحلته الأخيرة إلى (كراجي) من موافق الهند، وسخر الله له في عودته سفينة حربية إيطالية فطافت به سواحل بلاد العرب وسواحل إفريقيا الشرقية... فتيسر له بذلك اختبار هذه البلاد اختبارًا سبق به الإفرنج. وكان ينوي أن يقوم برحلة إلى أوروبا... لولا أن المنية عاجلته...»

ولكن القراء ما زالوا يعرفون الكواكبي برحلاته وأفكاره... ودعوته الإصلاحية في سبيل الإسلام، وضد

الاستبداد، ولم يعرفوه بعد كإنسان له صوت وملامح...
فكيف كان الكواكبي؟

يقول صديقه الأستاذ كامل التعزى:
«كان مربع القامة، حنطى اللون مستدير الوجه، خفيف
العارضين ألقى الأنف، واسع الجبين، ذا عينين زرقاوين،
معتدل المقلة، لا غائرة ولا جاحظة، معتدل فتحة الفم، أزج
الحاجبين، صغير الأطراف، معتدل الجسم بين السمن
والهزال، أسود الشعر... قد وخطه الشيب حين فارق حلب
إلى مصر».

ويقول صديقه الأستاذ إبراهيم سليم النجار:
«... وإنه كان أبيض الوجه بياضاً مشرباً بشيء قليل
من الحمرة شأن سكان البلاد الباردة، وقد أحاط خديه بلحية
قصيرة كانت كالإطار لوجهه ومد فيها الشيب خيوطه».

ويقول ابنه الدكتور أسعد الكواكبي:
«كان ربة إلى الطول أقرب، قوى البنية صحيح الجسم
عصبي المزاج، أشهل العينين، أزج الحاجبين، أبيض اللون،
واسع الفم، عريض الصدر، أسود شعر الرأس والذقن،

يتأتى في لباسه، يتكلم بجهر هادئ وسلاسة وابتسام، يحسن
السباحة والصيد والفروسية».

وهكذا... يستطيع القارئ أن يرنو بعينه فيرى أمامه
عبد الرحمن الكواكبي من خلال هذه الأوصاف، وإن كان
سيلاحظ اختلافاً ملموساً... بين من وصف فتحة فمه
بالاعتدال... ومن وصف الفم بالانفتاح... وبين من قال
إن لونه قمحي... ومن قال إنه أبيض البشرة...

وقد سجل الأستاذ العقاد في كتابه عن الكواكبي هذه
المعلومات :

«سمعنا وصف سجايه وملكاته العقلية ممن عاشروه، كما
قرأنا هذا الوصف بأقلام مترجمة. فرأيناهم يتفوقون على سجايا
خلقه وملكات عقله. اتفاهم على سماته وتكوين جسده،
كأنهم ينظرون إلى ملامح محسوسة لا تحظى العين رؤيتها ولا
يختلف الناظرون إليها في وصفها. فما من ترجمة له لم تبرز في
الكلام عليه صفات الوقار والحلم والنجدة، وعفة اللسان
وحسن الملاحظة، وصدق الإرادة، وكأنما تثبت هذه الصفات
في نفوس عارفيه لأنها تجاوزت أن تكون صفات مقدورة

وأصبحت أعمالاً متكررة يؤيد بعضها بعضاً... فلا ينساها
من رآها وسمع بها وبأثارها»...

ونعود إلى الحادثتين الهامتين في حياة الكواكبي... وهما
حادثة وصوله إلى مصر، وحادثة وفاته. وكلاهما ترتبط
بالأخرى في مجال اتهام الخديو عباس بدس السم للكواكبي في
الطعام.

فقد جاء الكواكبي إلى القاهرة والأزمة على أشدها بين
قصر عابدين وقصر يلدز. وأضفى عليه عباس ثوب الرعاية.
وكان متحفظاً في علاقته بأصدقائه من أعداء الخديو... مثل
الإمام محمد عبده والشيخ رشيد رضا وغيرهما. وكان متحفظاً
كذلك في علاقته بأصدقاء الخديو... فهو لا يؤثرهم بمودته،
حتى لا يثير حوله شبهة تبعيته للخديو...

وقد ذكر الأستاذ محمد كرد علي، وهو صديق الكواكبي،

هذه الرواية :

«جاءني الكواكبي ذات ليلة ليستشيرني في أمر عظيم فقال
إن الخديو عباساً عرض عليه أن يصحبه إلى الأستانة ليقدمه
إلى السلطان العثماني ويستجلب رضاه عنه... وبذلك تنحل

المشادة ويطمئن خليفة الترك إليه».

ويعضى كرد على، فيذكر أنه صعب عليه وعلى صديقه رفيق العظم أن يبديا رأيهما في موضوع خطير كهذا؛ لأن السلطان العثماني لا تأخذه هواده فيمن خرجوا على سلطانه، وخشيا أن تكون هناك دسيسة يذهب الكواكبي ضحيتها.

ويستمر كرد على في روايته... فيقول:

إن الكواكبي أخبره هو وصديقه العظم أنه حائر في أمره بين القبول والرفض، وأنه شعر بالأمس بوجع في ذراعه وما عرف له تعليلا، وانفض المجلس وذهب السيد الكواكبي إلى داره، فما هي إلا ساعة وبعض ساعة، حتى سمعنا ابنه كاظم في الباب يبكي وينوح ويقول: «قم يا كرد على، فإن صديقك أبي قد مات»...

وروى أحد أصدقائه أنه ذهب إلى الإسكندرية بدعوة من الخديو عباس لبضعة أيام.

والذين أشاروا إلى الخديو بقتل الكواكبي... لم يؤيدوا اتهامهم بصراحة، وإن كانت الظروف والملابسات التي أحاطت بوفاة الكواكبي تكاد تثبت الاتهام... مثل التعجيل بدفنه،

والحرص على التأكيد أنه مات بالذبحة الصدرية، واهتمام بعض الصحف بنشر أعراض الذبحة... وتطبيقها على ما شكاه منه الكواكبي ليلة وفاته...

وهكذا عاشت أفكار الكواكبي في مصر، وانطلقت من مصر... وقد جذبه مصر وهو حي. فأدى فيها رسالته، وجذبه وهو ميت... فكان مقره الأخير فيها...